سيد قطب

أيها العرب... استيقظوا واحذروا

حقوق الطبع محفوظة لدار الإسراء للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية ٢٠٠٤

ع٩ر٣٢٠
سيد سيد قطب
ايها العرب استيقظوا او احذروا / سيد قطب
تجميع جمال مدغمش .- عمان : دار الاسراء ، ١٩٩٠
(٢٢١) ص
ر.أ (١٩٩٠/٩/٦٠٧)
١ - العالم العربي - اوضاع سياسية أ - جمال مدغمش
جامع ب - العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

دار الإسراء للنشر والتوزيع
عمان/ الأردن
جبل عمان ، ت: ٤٦١٤٥٩١
العبــدلي ، ت: ٤٦٢٠٧١١
ص.ب: ١٨٢٤٤١
Email: Esraa Jordan@Hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

في ١٥ يناير ١٩٣٣، صدر العدد الأول من مجلة (الرسالة) لتكون مجلة عالم الأدب العربي.

وكان من بين أبرز أعضائها عباس محمود العقاد، وأحمد أمين، والدكتور عبدالوهاب عزام، وعلي الطنطاوي، والدكتور زكي مبارك، والدكتور محمود مندور، والشاعر محمود حسن اسماعيل، وابراهيم عبدالقادر المازني، ومصطفى صادق الرافعي، وتوفيق الحكيم، وكاتب المقالات التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه «سيد قطب»... وغيرهم من أئمة البيان، وأعلام الفكر والأدب كثير.

وقد تطرقت مجلة (الرسالة) في ثناياها لمعظم الموضوعات الاجتماعية والسياسية والدينية والفلسفية والعلمية والأدبية والتاريخية والفنية.. فلم تترك باباً إلا ولجته.. تصدر في ذلك عن نظرة عميقة، ومضمون ناضج، وشمولية... فكان لها بذلك بالغ الأثر في ميادين الاجتماع والدين والأدب..

ولقد نشر كثير من الكتاب مقالاتهم على صفحات مجلة (الرسالة) ثم عادوا فجمعوها، أو جُمعت من بعدهم في كتب مستقلة، كمقالات الأستاذ علي الطنطاوي، وقصة الدكتور زكي مبارك (ليلى المريضة في العراق)..

واليوم أضع بين يديك أيها القارىء، كتاباً جمعت فيه كل المقالات السياسية* التي نشرتها مجلة (الرسالة) لسيد قطب.. أضعها كما هي، بتسلسلها

* باستثناء تسعة مقالات، آثرت أن لا اعيد نشرها، حيث وجدتها في بعض كتب سيد قطب المنشورة، وهذه المقالات التسعة هي:

١ - طريق وحيد س ١٩٥٢/٢٠ ع ٩٧٢ ص ١٨١ منشورة في كتاب (كتب وشخصيات).

٢ - هذا هو الطريق س ١٩٥٢/٢٠ ع ٩٨٣ ص ٤٨٩ منشورة في كتاب (معالم في الطريق).

٣ - ضريبة الذل س ١٩٥٢/٢٠ ع ٩٨٩ ص ٦٥٧.

التـاريخي، وبـروحها الدافقة الحية، وبطابعها المتميز، وبتعبيرها عن معظم مراحل حياة سيد قطب الفكرية..

إنها مقالات ـ كما سترى ـ تتناول الأحداث السياسية والاجتماعية التي مرت بها مصر والأمة العربية والاسلامية في الفترة ما بين عامي (١٩٣٣ ـ ١٩٥٣) تناولاً عميقاً، مؤثراً، دقيقاً.. يهاجم فيها سيد قطب ـ بلا هوادة ـ كل أشكال الاستعمار ووسـائله، وينـادي بالتحرير والاستقلال، وبقيام الكتلة الاسلامية في مواجهة التكتلات الاخرى و... ولن أطيل.. فالمقالات ـ أيها القارىء ـ بين يديك، أسأل الله أن ينفعني وإياك بها، وأن يتغمد برحمته كاتبها.

المحامي جمال مدغمش

---

٤ ـ إسلام أمريكاني س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٩١ ص ٧١٣
٥ ـ العبيد س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٩٨ ص ٨٨١
٦ ـ أدب الانحلال س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٩٠ ص ٩٣٧
٧ ـ قوة الكلمة س ٢٠/١٩٥٢ ع ١٠٠٧ ص ١١٦١
٨ ـ يا لجراحات الوطن الاسلامي س ٢٠/١٩٥٢ ع ١٠١١ ص ١٢٧٣
٩ ـ فرنسا أم الحرية س ٢٠/١٩٥٢ ع ١٠١٥ ص ١٣٨٥.
وكلها منشورة في كتاب (دراسات اسلامية).

العالم يجري!!

س ١/ ١٩٣٣ ع ١٧ ص ١٢

كل شيء يجري في هذا العصر، وكل شيء يسرع. والعالم في إسراعه للأمام، لا يكاد يتلفت يمنة ولا يسرة، وان كان يتجه الى الخلف في أحيان قليلة، ليرى كم قطع من المسافات فالبخار لم يعد يستطيع تلبية هذه الحاجة الملحة للسرعة فخلفه الطيران، والطائرات نفسها تكاد تعجز عن تلبيتها، فتزيد كل يوم في سرعتها، وتقوم المسابقات العالمية لهذا الغرض.

والتليفون والبرق لم يعودا كافيين، فاذا بالراديو واذا بالتلفزيون لنقل الاصوات ولنقل الصور، بل لنقل المناظر ذاتها لا صورتها. وإذا بالأفلام الناطقة تعرض الصوت والحركة، وتغني بالعين والسمع عن الوهم والخيال!.

هذه الظاهرة السيكلوجية الغريبة، قد جرفت معها الأدب أيضاً، وجرفت الفنون جميعا، وكان ذلك طبيعيا، لأن الفنون هي الظاهرة للنفس الباطنة.

فالفن اليوم لمحات خاطفة، وملاحظات سريعة، لا يقف للدرس العميق، والتحليل الدقيق، لأن طبيعة العصر لا تمهله للوقوف، وإلا سبقته الحياة بآلاف الأميال.

والمجلات العلمية اليوم تكاد تنعدم، والباقي منها أخذته نشوة السرعة أيضا فلم تعد بحوثه مركزة، ومع ذلك فهي لا تجد العدد الكافي من القراء فتضمحل وتذوي، وتدرج في زوايا النسيان.

---

* نشرت في (الرسالة) س ١/ ١٩٣٣، ع ١٧، ص ١٢

وأنا على يقين من تبدل هذه الحال، فالعالم الذي يجري الآن بكل قوته، لا بد أن يدركه الكلال، ولا بد أن تنقطع به هذه النشوة الطائشة، فيتمهل ليعرف ما يحيط به.

وسيضحك العالم من نفسه يومئذ على تلك الحماقة التي ارتكبها، كما يرتكب الأطفال حماقاتهم، ركضا وجريا ووثبا ثم يفيقون من هذه الغمرة عندما يكتمل نضجهم، ويتوبون الى الرشاد.

النشاط شيء، والعجلة شيء آخر، واذا كان النشاط من مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، فليس للعجلة هذه المزية مطلقاً، بل أن لها أضرارا، قد لا تعرف اليوم في أبان هذه النزوة الطائشة، وقد تعرف ولكنها لا ترد إلى أسبابها الحقيقية، ولا تعلم علاتها الأصلية!.

ويقيني أن هذه الأزمات التي يعانيها العالم اليوم من مالية وسياسية وأدبية واجتماعية، انما منشؤها هذه السرعة، هذا التسابق، هذا الجنون، الذي يعمي الانسان عما حواليه، فلا يرى إلا الامام دون ما على الايمان والشمائل.. وحتى حين يصطدم بما حواليه، فهو لا يقف ليتأمل، أو ليصلح ما أصابه من الاصطدام، بل ينطلق إلى الأمام أيضاً، محتملا أثر الصدمة تلو الصدمة حتى يلحقه العطب الكامل.. فتكون هذه الأزمات!.

إن السائق الذي يعرف كيف يسوق ولا يعرف كيف يقف: أو يدري كيف يسرع، ولا يدري كيف يبطىء، إنما هو سائق جاهل، غير مأمون على نفسه ولا على الركاب. وإذا كان للقيادة السريعة لذة في النفس ونشوة، فليس معنى هذا أنها أحسن القيادات وأولاها بالاتباع.

وبعد ففي مصر اليوم دعوة حارة ومخطرة معا، الى تقليد الغرب، والجري وراء الغرب، وإن كان الغرب نفسه لا يعرف اليوم وجهته، وهو شارد كالضال في متاهات الحياة، فكأننا سنجري وراء من يجري وهو لا يعرف مبتغاه!!.

وهذه الدعوة مفهومة من الوجهة «السيكلوجية» وقد عرف «ابن خلدون»

أسبابها منذ قرون حينما عللها. بأن المغلوب يميل بطبيعته لتقليد الغالب لأعتقاده أن غلبته له إنما كانت لخصائص فيه.

والسيكلوجية الحديثة تقر ما ذكره ابن خلدون، وتضيف اليه نظرية العقل الباطن، إذ يندفع الانسان في بعض الأحيان، الى أمور لا دخل لارادته فيها، ولا لتفكيره، بحكم إندساسها في العقل الباطن، من مخلفات مشاهداته، أو ملاحظاته أو تفكيره التي يغمرها النسيان.

وهذه الدعوة مع أنها مفهومة وطبيعية، ليست مُسَلَّمة، ومن الواجب التحذير منها، وابرازها للنور، بعيداً عن المؤثرات النفسية الغامضة، واذا كانت الحرب العظمى قد أفقدت العالم الغربي اتزانه وطمأنينته، وبعثته من المكامن والخنادق وحفر الموت، مأخوذا، مشدوها، مجنونا. فليس من الواجب أن يفقد الشرق طمأنينته كذلك، ويجري وراء الغرب المأخوذ المشدوه، دون ما تأمل ولا تفكير!.

إن للشرق رسالة قد يكون الآن موعدها، ورسالته هذه ستقوم على خصائصه الأصلية فيه، وستصبح واجبة بل ـ اصبحت ـ لأن الغرب يكاد يتهالك ضعفاً وإعياء لفرط جريه، وكثرة اصطداماته.

نحن لا نكره النشاط كما قلنا. ولكن نكره العجلة. ونريد أن يحتفظ الشرق بشيء من يقينه، ومن عمقه واتساعه، ومن سحره أيضاً!، وألا يفرط في تقليد الغرب، ولا سيما والغرب يتخبط، ويئن، ويشكو من الصدمات ولم يوفق بعد لاتقائها، لأن النشوة لا تزال تطيف برأسه فيجري، وينهكه الجري، ولكنه لا يكف عن الجريان!

بيت المغرب في مصر

س ١٩٣٨/٦ ع ٢٨٢ ص ١٩٣٧

هيأ عقد المعاهدة بين مصر وانجلترا للدولة المصرية الحديثة، أن تنتهج سياسة شرقية عربية كانت تطمح إليها من قبل، فيحول دون انتهابها أولا مشاغل الوطنية باستكمال الاستقلال، وثانيا تيارات السياسة الاستعمارية المضادة للوحدة العربية الشرقية، وتطرد مظاهر هذه السياسة الجديدة في التفكير المصري الآن، وتتحقق بوسائل عملية لم تكن بارزة من قبل.

فالأزهر اليوم يرحب بالبعثات الشرقية عامة، وهو وإن كان من قبل مثابة طلاب هذه البلاد، إلا أنه في هذه الأيام يشملهم برعاية خاصة، والجامعة تزخر بالكثيرين من أبناء البلاد الشقيقة، وتسهل لهم الطرق لاستكمال دراستهم بها.

ودار العلوم تهتم بانشاء قسم داخلي للاخوان الشرقيين بها، مبالغة في توفير أسباب الراحة والدراسة المنظمة لهم.

وفي الوقت ذاته تتجه مصر إلى جاراتها العربية للنظر في توحيد البرامج أو تقريبها على الأقل، ويعقد مؤتمر في تونس للثقافة العربية قوامه الأساتذة المصريون.

وكذلك تمد مصر يدها بخيرة أبنائها لهؤلاء الجيران الكرام، يحملون إليها العلم والنور والخبرة في شتى الشئون.

هذا كله في عالم الثقافة، فأما في عالم السياسة فان قضية فلسطين كانت محكا لتوثيق الروابط بين مصروالبلاد العربية كلها، وقد نالت هذه القضية عطف كل مصري واهتمامه، وآخر مظاهر الاهتمام كانت في المؤتمر البرلماني ومؤتمر

الجامعة. كما أنني أعلم من مصادر وثيقة أن الحكومة المصرية قدمت لحكومة لندن مذكرة خاصة بهذا الموضوع، ضمنتها رأيها قوياً حازماً صريحاً، وإذا كانت لم تشأ نشر هذه المذكرة، فقد اختارت بهذا أن تتبع الطرق الدبلوماسية المناسبة للمعاهدة.

في خلال هذه اليقظة التي تعمر الضمير المصري تجاه البلاد العربية، افتتح «بيت المغرب في مصر» فكان افتتاحه في هذا الأوان علامة من علامات التوفيق، ومظهراً من مظاهر الحيوية العربية الكامنة التي تنبثق في أفضل المناسبات.

وهو دليل جديد على الثقة بمصر، والتوجه إليها من أطراف المشرق العربي والمغرب العربي، هذه الثقة التي يحق للمصريين أن يفخروا بها، وأن يعنوا باستدامة أسبابها، وتمكين روابطها.

وقد أحسنت مصر استقبال «بيت المغرب» واشتركت الحكومة والشعب بالحفاوة به وبسكانه، لتفتح قلبها اليوم لمثل هذه الصلات، بعدما خلصت من قيود الاستعمار.

ولقد كان لي من قبل حظ معرفة الرجل الوطني العامل الذي يشرف اليوم على بيت المغرب بأقسامه الثلاثة (مقر البعثة، ومكتب التبادل الثقافي، ومعرض الفن المغربي) إذ كان يدرس بمصر عام ١٩٢٩ وكانت وجهتنا إذ ذاك مع نخبة من أكرم الاخوان المصريين والشرقيين أن نؤلف جمعية للطلبة من هؤلاء وهؤلاء، تمكن من الروابط بين الجميع، وتعمل للمستقبل في توثيق العلاقات وتسهل للطلبة الشرقيين وسائل العلم والراحة في مصر.

وكان الأستاذ المكي الناصري أشد المتحمسين للفكرة، وكنا نجتمع ـ غالباً ـ في داره بمصر للمباحثات في تحقيق هذا الأمل الكريم.

فمن حسن الحظ أن يكون هذا الرجل هو الذي يتولى الآن تنفيذ فكرة «بيت المغرب» إذ هو أصلح رجل مغربي ـ فيما أعتقد ـ لتنفيذها، لسابق معرفته بالأوساط المصرية وسابق تفكيره في مثل هذه المشروعات.

ورؤيتنا لبيت المغرب حقيقة ملموسة، تثير في نفوسنا التساؤل: متى يكون لكل أمة عربية بيت في مصر على مثال هذا البيت الوطيد؟.

إن اليوم الذي تكون فيه لكل بلد مشرقي بعثة دائمة في مصر على هذا المثال لهو اليوم الذي يتم فيه توحيد الثقافة والاتجاه بين هذه الأمم، فتتم لها العزة العربية التي تحلم بها في المستقبل القريب ـ إن شاء الله ـ.

ويلات السِّلْم. . . !

هذه الحياة الدنيا عجيبة، فهي ما تزال تنشىء السم وتدس فيه الترياق، وتخلق السقم وبين طياته عناصر الشفاء. وما تزال تخيل لأبنائها السذج أنها موشكة على التلف مشرفة على البوار، فتثير فيهم قواهم الكامنة، وتستحث منهم هممهم الراكدة، ثم إذا هي تنصل من الداء، وتنهض من الكبوة، أشد ما تكون عافية، وأوفر ما تكون قوة، كصحو الطبيعة غب الوابل المنهمر، وصفو السكون بعد العاصفة الهوجاء!.

وإن من عجائب هذه الحياة أن تكون للسلم ويلات، ربما فاقت ويلات الحرب، بل هي تفوقها بكل تأكيد. ألا وإن من عجائبها أن تجعل الحرب ترياقاً لسموم السلام!.

وما يخالجني الشك في أن فرنسا كسبت بهذه الهزيمة أضعاف ما كسبت غداة الهدنة بالنصر. ومهما بدا هذا القول عجيباً فإنه قمين بالتصديق. ومن شاء أن يختبر صدقه فانظر فيما كانت عليه فرنسا قبل الحرب، وما يلوح أنها ستكون عليه بعدها.

لقد عبث النصر السابق والرخاء الغابر بفرنسا عبثاً شديداً، فلقد غدت قبل الهزيمة شيعاً وأحزاباً لا حصر لها، ولا تدرك أسماؤها فضلاً على مبادئها، بل أهوائها. ولقد كان التشعب السياسي والحزبي أهون ما نكبت به فرنسا، فلقد أصابها ما يصيب الأمم المنحلة من تدهور خلقي، وإباحية، وبيئة، وفردية مقيتة، واستهتار معيب، ولقد نُسيت فرنسا ليُذكر الفرنسيّ! وبات كل فرد أمة، فكل فرد وشأنه، وكل امرىء ولذائذه، وكل نفس وشهواتها، وعاد الأخذ شهياً

والمنح مريراً وغلبت الرفاهة وحب الراحة على الجميع.

هذه فرنسا التي هزمت في أسبوعين، وكانت ستهزم نفسها لو لم يهزمها الجرمان، وكانت ستخذل قضيتها لو لم تخذل في الميدان..

وهذه ـ ولا شك ـ بعض ويلات السلام، أو الاطمئنان إلى السلام! أما فرنسا بعد الهزيمة، فها هي ذي مغلوبة على أمرها ولكنها أشد حيوية وأكثر يقظة، فلقد تنبهت فيها كل حاسة، ولقد وحدها الخطر وهي ممزقة كل ممزق ـ والجسم الحي يتنبه ليدفع الخطر ـ؛ وأخذ كل فريق يعمل على طريقته، ولكن لفرنسا، لفرنسا وحدها لا لنفسه أو حزبه، ولا لمطامعه ولذائذه.

فهذا «ايتان» الشيخ يجدد شباب فرنسا! ويوحي إليها في كل حركة وكل عمل وكل خطبة أن تنهض، ويبشرها بالنهوض، وهو في الوقت ذاته يذكرها بالخطر الجاثم والهول المحدق، ويستنهض فيها الماضي والمستقبل، ويقودها إلى الإيثار بعد الأثرة، وإلى التضامن بعد الفردية، وإلى الانسانية العفة بعد الإرتكاس في الشهوات.

وهذا «فيجان» يحتمي في الشمال الإفريقي، ليشد ساعد الشيخ، ويثبت أقدامه أمام الغول الجرماني؛ وليبث في نفوس الفرنسيين الثقة بأن لهم بقية من قوة، ومسكة من مقاومة، وأنهم خليقون بالثبات بعد التقهقر، والنهوض بعد العثار، والرجاء بعد القنوط، والعزة بعد الاستسلام.

أما «ديجول» فالحديث عنه نافلة، ذلك أن موقفه خطبة صامتة أبلغ من كل خطبة، وذلك أنه يمثل قلب فرنسا الحي، قلبها الشجاع الأبيّ، الذي لم يعترف بالهزيمة غداة الهزيمة. وإن «ديجول» وحده لشهيد بأن في هذه الأمة حياة، ولو طمست كل الأدلة والبراهين.

وما من شك أن فرنسا ستنهض وقد تطهرت من أرجاسها ونقيت من أدرانها. ستنهض باسم الرجولة والتضحية والأخلاق، وستكون خيراً لنفسها وللعالم من فرنسا الممزقة الغارقة في الشهوات.

ولقد صنعت ألمانيا سنة ١٩١٨ ما تصنعه فرنسا اليوم؛ فكانت الهزيمة حافزها الأول إلى وثبتها الجديدة. ولو لم يقم على هذه النهضة رجل مريض النفس، شاذ السليقة، لانتفع بها العالم في التعمير بدل التخريب، ولصرفت هذه الطاقة الضخمة من القوة الخارقة في غير هذا السبيل.

وما أريد أن أضرب المثل بانجلترا، فقد يكون الخلق الإنجليزي فوق مستوى أفهامنا، بل فوق مستوى أفهام العالم. هذا الخلق الذي يخلق من الشعب كله أبطالاً في ساعة المحنة، ويجعل من البشر ملائكة في لحظة الخطر، ويحيل الأفراد كتلة واحدة ما لها من فكاك.

ومع هذا فقد كاد السلم، وكاد الغنى، يضعفان من أعصاب هذا الشعب، فذهب الى الحرب متثاقلاً، ونام عن الاستعداد حتى دهمته الأهوال. ومن يدري لو طال به السلم، وأُمليَ له في الدعة. ما كان يصيب هذا الخلق المتين من الوهن، وهذه الأعصاب الفولاذية من الانحلال.

للسلم ويلات...

ومصر ـ كنانة الله في أرضه ـ أشد أمم الأرض بلا استثناء إصابة بهذه الويلات!.

فأين ما كان في فرنسا من تشعب وتشعث مما في مصر؟ وأين ما كان هناك من فردية مقيتة وأثرة بغيضة مما في كنانة الله؟ وأين ما كان في وطن نابليون من رفاهة مريضة وترف ذليل، وفساد في الخلق والضمير، مما يجري هنا في وطن رمسيس؟.

لا يحاول أحد أن يكتم عنا ما نحسه في أعماقنا، ولا يجادل أحد فيما تلمسه أيدينا وتراه عيوننا، ولا يفهم أحد أنه من الخير لنا أن نعصب عيوننا فلا نرى سوءاتنا.

إن في مصر من «ويلات السلم» ما لا يتصوره أي أجنبي عنها؛ وفرنسا المنحلة المريضة الغارقة في الشهوات كانت قديسة طهوراً بالقياس إلينا...

كانت أمة ولسنا نحن أمة، وهذا أخصر ما يصورنا من ألفاظ.

في مصر ما لا يحفظ التاريخ من فحش يعج بها وفحش يكتم

كما قلت في قصيدة منذ سنوات.

وليس هذا «الفحش» بقاصر على ما ينصرف الذهن إليه أول وهلة، ولكنه فحش يشمل كل شيء. يشمل الضمائر والأسرار، ويشمل التصرف الشخصي اليومي للألوف والملايين.

في مصر فحش من الفقر وفحش من الغنى، فحش من الحرمان وفحش من المتاع. وفيها فحش النعومة التافهة يقابله فحش من الخشونة العارمة.

وفي مصر مشاحنات ومنازعات، ولكنها ليست على شأن جليل ولا غرض عظيم. وفي مصر أثرة عمياء صغيرة المطامع قريبة الآفاق لا تعدو لذة كلذة الحشرات والهوام.

ومنشأ هذا كله طول عهدنا بالسلم الرخيصة والدعة المريضة والأمان التافه. كل ذلك عبث بأعصابنا فأوهنها وبآمالنا فقرب مداها، وبهمومنا فأصغر قيمتها، والخطر الذي يثير الأعصاب، وينبه الحواس، ويكبر الهمم، ويغذي الطموح قد حرمتنا الأقدار إياه، فمنحتنا طبيعة سمحة لا تحوجنا للجهد ولا تثير فينا الجهاد، وسلبتنا نعمة الاستقلال أحقاباً متطاولة فلم نضطلع من عهد طويل بأعباء الاستقلال.

علم الله لقد كانت أكبر أمنية لي أن أعيش حتى أرى مصر تخوض معركة. معركة واحدة، تطهرها كما تطهر النار الخبث، وتبعث فيها الرجولة الكامنة والتضامن الوطيد، وتشفيها من رخاوة السلم وانحلال الدعة ونعومة الفراش!.

وإن مصر لكاسبة كاسبة لو خاضت المعركة. كاسبة ولو تحطمت دورها وتمزقت أجسادها، لأنها ستبني أخلاقاً وتوحد كياناً، وترفع فوق مستوى الحرص الحيواني على الحياة إلى مستوى الحرص الإنساني على الكرامة. ولأن حيويتها

ستنبض في ساعة العسرة، وأعصابها ستشتد في مواجهة الخطر، فتعوض في المستقبل أضعاف ما تخسر من دور وما تفقد من أجساد!.

لو خضنا المعركة ـ أية معركة ـ ما حدثك شاب «أرستقراطي» عن «النكبة» التي حلت به لأن «سهرة» فاتته، ولا عن «الكارثة» التي تسود حياته لأن منافساً له من بني طبقته فاز بقلب راقصة ـ إن كان لها قلب! . . ولا عن «ويلات الحرب» التي رفعت من أثمان العطور والخمور!.

أي والله هذه أحاديث شباب «الوسط الراقي» في مصر، وتلك مطامعه وآفاقه في الحياة. وإن كثيرين من أبناء الطبقة الوسطى ـ عماد الأمم ليقلدون هؤلاء مع الأسف، فإن لم يقلدوه في هذا، فالكارثة عندهم أن لم يجدوا وظيفة بعد تخرجهم، والنازلة أن بعض زملائهم سبقوهم في الدرجات، وويلات الحرب عليهم هي وقف العلاوات والترقيات!.

لو خضنا المعركة ـ أية معركة ـ لبرئنا من الأثرة الحمقاء التي يحسب فيها التبرع بالجنيه من صاحب الألوف مفخرة تشيد بها الصحف، وتطوع فتاة في مستشفى في مبرة تنشر من أجلها الصور. ذلك أن التبرع بالأرواح والتطوع بالدماء يصبحان إذ ذاك عملاً يومياً لا يلفت الأنظار!.

لو خضنا المعركة ـ أية معركة ـ لسكتت ألسن الدعاة الحزبيين عن الخوض في الشخصيات ولترفعوا عن المغانم والأسلاب، ولكان لهم من هموم مصر ما يشغلهم عن هموم الحكم، ومن مطالب الوطن ما يلهيهم عن مطالب الأنصار!.

ولو خضنا المعركة لكان لنا أدب غير أدبنا الباكي الحزين ولكانت لنا أمجاد نتغنى بها، ومخاطر ندعو إلى اقتحامها، ومخاوف نثير الهمم إزاءها، ولكانت لنا عزة تستشعرها نفوسنا ويتغذى بها إحساسنا.

إي والله، ولا سمعنا في ذلة باكية «ما يهونش» أو «ميلت بختي في الحب بختي» أو «يا حبيبي تعال الحقني شوف اللي جرالي من نار حبك» أو «ليه

تلاوعيني وانت نور عيني». ولأنفنا أن يكون نشيدنا القومي المختار: «لا والنبي يا عبده»!.

اللهم إن تكن قد كتبت علينا ألا نخوض المعركة، فابعث اللهم علينا بركاناً ثائراً أو زلزالاً محطماً أو سيلاً جارفاً أو كارثة من كوارثك الرحيمة التي تنقذ بها عبادك من نعومة الأمن ورخاوة الدعة وويلات السلام!.

فإن تكن اللهم قد أردت حرمان هذا الجيل من رحمتك فلا تحرم الأجيال الآتية ما حرمتنا، إنك أرحم الراحمين!.

هذه هي فرنسا

كلما سمعت أو قرأت ـ بمناسبة حوادث سوريا الأخيرة ـ أن هذه الحوادث مخالفة لتقاليد فرنسا، ثار في نفسي شعور السخرية المريرة من هؤلاء المتحدثين أو الكاتبين. .

تقاليد فرنسا!

ومتى كانت تقاليد فرنسا إلا هذه البربرية المتوحشة؟ ومتى كان الفرنسيون إلا عشاق المجازر البشرية، المولعين بالدماء في كل زمان ومكان؟ حتى في ثورتهم الكبرى التي يعيشون باسمها حتى الآن.

تقاليد فرنسا!

تقاليدها في سورية، أم مراكش، أم في تونس، أم في الجزائر، أم في أية بقعة من بقاع الأرض على مدى الأزمان والأجيال؟.

إنني لأستعرض أمامي تاريخ فرنسا في الشرق، فلا أجد إلا صفحات من البربرية المتوحشة، وإلا بركاً من الدماء حيثما وضعت أقدامها في مكان، وإلا وسيلة واحدة من وسائل التدمير والتخريب.

في أيام نابليون سلطت المدافع من قلعة الجبل على المصريين، ودخلت الجنود الفرنسية المتبربرة بخيولها الأزهر، وجرت الدماء في شوارع القاهرة، وديست كرامة الدين، وانتهكت الحرمات العامة. . باسم تقاليد فرنسا!.

وفي سنة ١٩٠٥ ضربت دمشق بالقنابل، وأريقت الدماء في الشوارع، واعتدت الجنود الفرنسية المتبربرة على الآمنين. وضج الشرق العربي للمأساة،

بينما كانت الصحافة الفرنسية تمجد أعمال الوحشية في سورية. . باسم تقاليد فرنسا!.

وفي سنة ١٩٢١ وما بعدها وما قبلها أيضاً سالت الدماء في مراكش العربية لإرغام الناس هناك على الدخول في المسيحية وترك ديانتهم الإسلامية، باسم «الظهير البربري» المعروف جيدا في كل صقع إسلامي، والذي يشهد أن دماء الصليبيين لا تزال تجري في عروق الفرنسيين، ومنذ ذلك الحين بل قبله والزعماء المراكشيون منفيون في المستنقعات الحارة، وبلغ من الوحشية المتبربرة أن تشغِّل هؤلاء الزعماء السياسيين في رصف الأرض وقطع الأحجار في تلك الجهات الحارة النائية في أواسط إفريقية حتى يصاب بعضهم بالسل، وبعضهم بالحمى الصفراء. . وذلك باسم تقاليد فرنسا!.

وفي تونس، وفي الجزائر، البلدين العربيين اللذين تدعي فرنسا أن ثانيهما «أرض فرنسية» تعمل جاهدة على رد أهله عن دينهم بكل وسائل العنف والقسوة. . باسم تقاليد فرنسا!.

هذه هي فرنسا.

هذه هي في حقيقتها من وراء الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة. بل هذه هي حتى من خلال الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة. فما هذه الأضواء التي تخدع المخدوعين، وتطلق ألسنة الدعاة؟ إنها الدعارة الفاجرة، والتحلل الذميم، والبوهيمية المطلقة. . إنها هي بعينها النكسة إلى حياة الحيوانية، وفوضى البربرية!.

ولكن هنا رؤوساً وأقلاماً لا تزال تمجد فرنسا، ولا تزال تتشدق باسم فرنسا!.

أولئك بضعة نفر عاشوا في فرنسا فترة من العمر، فسمحت لهم فرنسا الداعرة بإشباع أقصى لذائذهم الحيوانية، وتروية أظمأ شهواتهم الحسية. . ثم عادوا فإذا في الشرق بقية من تقاليد وبضعة من حواجز، فلم يرق لهم ما في هذا الشرق من «رجعية»! وظلوا يحنون إلى عهد فرنسا الداعر وإلى لذائذها الممنوعة، وإلى شهواتها المحرمة!.

وقليل منهم وجد في فرنسا علماً وفناً ـ وان لم يجد لفرنسا قلباً ـ ففتنة العلم والفن عن أقدس المقدسات القومية والإنسانية فتنة عن كرامة الوطن، وعن حرمة الأهل وعن شرف العرض. . فإذا أحدهم يجادلني في أمر الشرق العربي وفظائع فرنسا فيه فيقول: «إذا لم يكن للانسانية من أن تفقد فرنسا أو أن تفقد هذا الشرق العربي، فليذهب الشرق العربي إلى الجحيم»!.

هؤلاء نفر منحلون. . . وعلامة الانحلال في فرد أو أمة أن يهون عليه شرف العرض وحرمة الأهل وكرامة الوطن. كما هانت على هذا الذي كان يجادلني في أمر فرنسا.

ويقولون لنا حين نجادلهم: إنكم لم تعيشوا في فرنسا. أجل نحن لم نعش في فرنسا، ولكن فرنسا عاشت عندنا فلم نطلع منها في يوم من الأيام على صفحة بيضاء. . . فهلا أخطأت فرنسا مرة فأطلعتنا على حقيقة عناصرها الطيبة؟!.

ويعتذرون لفرنسا اليوم في تصرفاتها البربرية بأنها تحس «مركب النقص» بعد الهزيمة، فتريد التعويض بمظاهرات القوة، وأن سياسة وخز الابر التي تتبعها معها إنجلترا في الشرق هي التي تثير أعصابها تلك الثورة الوحشية.

ولكننا نستعرض تاريخ فرنسا في الشرق، فلا نجد اختلافاً بين مركب النقص ومركب الكمال!، ولا نلمح فرقاً بين فرنسا الظافرة بعد الحرب العظمى وفرنسا المهزومة في هذه الحرب.

إنها هي هي. . فرنسا المتوحشة في كل حال. فرنسا التي تدك القاهرة بالقنابل وتعتدي على حرمة الأزهر وكرامة الدين في عهد نابليون، هي فرنسا التي تدك عاصمة الأمويين بالقنابل في عام ١٩٢٥ ثم في عام ١٩٤٥.

فإما أن «مركب النقص» هذا طبيعة فرنسية دائمة، وإما أننا نختلق لفرنسا المعاذير لأننا منحلون. لا نثور لعرض، ولا نغضب لأهل، ولا تعنينا كرامة، بعد أن تهيء لنا فرنسا لذائذ الحس، وشهوات البدن، أو حتى لذائذ الفكر وشهوات الوجدان!.

يجب أن نذكر أن فرنسا هي التي أطلقت قنابلها على القاهرة وداست بخيلها مسجدنا الأعظم في عهد نابليون.

يجب أن نذكر أن فرنسا هي التي مهدت الطريق للاحتلال الانجليزي بانسحاب أسطولها من المياه المصرية سنة ١٨٨٢، وترك الأسطول الإنجليزي يهاجمنا بعد الخدعة اللئيمة التي خدعها دي لسبس لعرابي بحماية قناة السويس وعدم السماح للاسطول الانجليزي بمهاجمة فرنسا من ناحيتها، ثم النكث بالعهد، لأن فرنسا كانت تبصبص بذنبها كالكلب ينتظر فتات المائدة في «الاتفاق الودي» بعد ذلك بأعوام!.

يجب أن نذكر أن فرنسا هي التي أطلقت قنابلها على دمشق عاصمة الأمويين مرتين في خلال عشرين عاماً، بلا مبرر، وبعد تدبير شنيع.

يجب أن نذكر أن فرنسا هي التي دبرت مؤامرة وحشية دنيئة لم تتم لقتل أعضاء الوزارة السورية وأعضاء البرلمان السوري، وكان عدم إتمامها راجعاً الى وقوع وثيقة في يد الحكومة السورية.

يجب أن نذكر أن فرنسا هي التي أصدرت أمراً يومياً لقواتها في سورية بالاستعداد «لمذبحة كبرى»! وأن قائدها هناك هو الذي صرخ بحبه لمظاهر القتل والدماء!.

يجب أن نذكر أن الجزائر وتونس ومراكش تلقى من البربرية الفرنسية ما لا يلقاه أحد من العالمين من القتل والنفي والتشريد، واستخدام الوسائل الخسيسة في تعذيب الزعماء السياسيين.

يجب أن نذكر هذا كله، لنحتقر الثقافة الفرنسية مهما تكن، لأن الثقافة تظل أبداً جوفاء إن لم يكن من آثارها تهذيب الطبع، وإنارة القلب، وبث الشعور الأدمي بين المثقفين!.

ويجب أن نذكر هذا كله لنحتقر دعاة فرنسا في كل مكان في الشرق العربي، وننظر إليهم كما ننظر إلى الأمساخ المشوهة، والمخلوقات المريضة،